حكاية جدتي

سامحك الله يا عاطف، أغويتني بالقاهرة والعمل بها، وأبعدتني عن نفسي وعن جدتي. جدتي! منذ رحيلي عنك وعن القرية منذ أعوام وأنا ما زلت أذكرك، وهل أنساك؟ وأنا مازلت أبحث عنك وعن الحياة وعن نفسي، كيف أنساك؟ وأنا أرى وجهك في كل وردة بيضاء تقع عليها عيني من نافذة القطار.

رُسمت على وجوه الركاب ضحكات ودموع، إلا وجهي الذي انفرد بالاشتياق، حتى بعد تشبث القطار بالرصيف، غدوت وأنا أنفض عن نفسي غبار المدينة، وأجاهد في الوصول إلى أقرب عربة تسوقني إليك، طال انتظاري لحضنك الدافئ الذي يقيني شر الليالي الباردة، سأعود إليك ولن أبرحك أبداً.

بالرغم من ضجيج الركاب من حولي فإنني أبحث عن وجهك النضر البشوش، الذي جاوز الستين بين غصون القمح التي توارت خلف المباني التي صفت على جانبي الطريق، لم يبعدني عن تذكرك سوى مغازلة شاب لفتاة، ومداعبة رجل أفندي لبائعة البيض، ابتسامة الفتاة تؤنسني مثل ابتسامتك التي زرعت فوق صفحتك ولم تذبل إلا مرة واحدة عندما مات جدي، لكن سريعاً ما اخضرت أوراقها حينما قلت "عمر كثيراً وذهب للدار الخالدة وغداً سأقاسمه فيها ".

ما أجمل الليالي التي قضيتها معك تحت ضوء القمر، إنني أرثي لها عندما نزلت من العربة. ظننت السائق جهل بغيتي وألقى بي في مكان أخر، لولا أن رأيت مدرستي الابتدائية تختبئ بجدرانها المتهالكة وسط المقاهي التي تعلوها الأطباق الصناعية، سرت في طرقات القرية الواسعة المغطاة بطبقات من الأسفلت، وجسدي يصطدم بكثير من النساء اللائي يلطخن وجوههن بألوان الطيف السبعة، مازلت أذكر قولك يا جدتي، "المرأة لا تخرج إلا مرتين، إحداهما إلى بيت زوجها، والأخرى إلى قبرها ". تنحيت جانباً من عربة تعقبها أخرى كانت ستصدمني، الناس يسيرون بسرعة موحشة، الكثيرون يستنكرون نظراتي، القليلون يجهلونها، أحدهم صافحني في عجل ثم انحشر في طابور مزدحم لشراء العيش.

تاهت مني معالم القرية يا جدتي التي كنت أجوبها عند خروجي من المدرسة لأكون أول من يلق في حجرك الحلوى الطحينية، ترى أتصلك الحلوى التي أرسلها إليك مع كل مسافر؟، كانت أمي بل كل نساء الدار يحسدونك على حبي لك.

ضلت قدماي الطريق، وظلت تصارع الإعياء، حتى أهتديت إلى المندرة التي نقش على بابها اسم جدي الكبير، أبحث بناظري عن الرهبة التي تقع أمامها، فلم أجد أثراً لذرات ترابها، وشجرة الصفصاف

التي تتوسطها، وسارت قدماي في طريق الضلال وسط المباني للبحث عن الدرب الذي يضم بيتنا الكبير، حتى هدتني إليه طفلة تحمل طعاماً سئمت منه طوال إقامتي بالقاهرة، فسرت بخطوات يسبقها الشوق، وقبل أن أنقر الباب كانت الطفلة ذاتها تتأهب لإغلاقه، سألتني عما أريده، دلفت إلى الداخل دون أن أعيرها أي اهتمام، وظللت أجول بين جدران البيت المتهالكة، أبحث عن كل شيء، الماضي، الحاضر، المستقبل الذي جئت من أجله، كانت كل الغرف مغلقة، إلا غرفة واحدة كانت جدتي ملقاة فيها وكأنها شيء من زمن فات، جريت ألقي شوقي بين ذراعيها الواهنتين.

ضاق حضنها ولم يعد يحتويني، ترفل ثوب الكلمات بصعوبة وهي تحدثني، عيناها تبث شكوى، وتسألني أسئلة سألتها لنفسي، أجابت الطفلة وهي تضع الطعام عن أحدهم، "كلنا سكنا في الغيط وأكثر من نصف البلد".

نظرت إلى الطفلة وهي تقدم الطعام لجدتي، وتناديها مثل ما أناديها، فسألت جدتي، فأجابت وهي تتمنع عن الطعام: بنت أخوك الكبير. ثم أومأت إلى الطفلة بإحضار بعض الشيء من الطاقة التي تخبئ فيها الأشياء، فأتت الطفلة وهي تحمل علبة من الحلوى الطحينية، كنت قد أشتريتها منذ فترة، أخذتها من الطفلة وشرعت في فتحها وأنا استجدي جدتي حكاية من حكاياتها، فعادت ابتسامتها وهي تقول: "جدتك أكبر حكاية يا ضناي" وظلت تبتسم وتبتسم حتى أُغمضت عيناها، أقبلت عليها أقبلها فوق جبينها، والدمع يترقرق في عيني، نظرت إلى الطفلة، كانت تحمل كثيراً من ملامحك يا جدتي.

كان يوم شديد البرودة حينما تسللت من القرية في الظلام الجانح، بعد أن شيعت جثمانها أنا وقليل من أهلي، وكانت السماء تهطل أمطاراً، ظننتها دموعاً على حكاية جدتي.